محمد سعيد القاسمي   جمال الدين القاسمي

خليل العظم



حققه وقدم له

ظافر القاسمي

حققه وقدم له

ظافر القاسمي

محمد سعيد القاسمي

قاموس الصناعات الشامية

الجزء الأول

اتوجه بالشكر العميق الى الاستاذ لويس ماسليون الذي كان له فضل الايحاء بطبع هذا الكتاب ونشره ، وكتب مقدمته .

واشكر معهد الدراسات العملية العليا في باريس الذي تولى نشر الكتاب .

واشكر الاستاذ الصديق جاك برك ، استاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس الذي شارك في جميع مراحل اخراج الكتاب ، مشاركة صادقة .

واشكر سماحة الأستاذين محمد بهجة البيطار ومحمد ناصر الألباني اللذين توليا تخريج احاديث الكتاب .

واشكر الاستاذ الصديق فيضي الاتاسي الذي ساهم المساهمة الكبرى في نقل مقدمة الكتاب الى اللغة الفرنسية .

واشكر الاساتذة الاصدقاء انطون شلهوب ومصطفى الباروذي ونجاة قصاب حسن وكامل عزيز الذين آزروني مؤازرة صادقة .

واشكر الآنسة م. ن. دوفو التي وضعت فهارس الكتاب الفرنسية .

ظ . ل .

قاموس الصناعات الشامية

للاستاذ لويس ماسنيون

امام ناظري نسخة من «**قاموس الصناعات الشامية**» مؤرخة في التاسع والعشرين من ذي القعدة من عام ١٣٤٧ ــ ١٠/٥/١٩٢٨[1] وقد حصلت عليها بفضل صداقتي لأسرة دمشقية نبيلة جدها هو مؤلف هذا « القاموس » .

ولقد اتيح لي ان اتفحص هذا المؤلف قبل احد عشر عاماً ، في المكتبة البديعة التي يضمها بيت تلك الأسرة وقد استعنت به في اعداد القسم المختص بدمشق من بحثي الواسع عن تنظيم العمل والعمال في المدن السورية في الوقت الذي بدات فيه النقابات تحل محل «المنظمات الحرفية» Corporations منطلقة في نزوع الشعب الى الاستقلال .

ويوم ينشر هذا القاموس الاجتماعي ، فلسوف يهدي الباحثين الى تنظيم مجموعات مصورة عن ادوات الحرفيين التقليدية ، ويوجه العمل على تاسيس متحف تاريخي للأساليب الفنية ، ثم لا يكون هذا شانه فحسب بل انه يوحي بدراسات في علم النفس الاجتماعي ، وبتنظيم جداول للاحصاء المهني ، وبوضع مصورات طبوغرافية عن التوزيع التاريخي للمنظمات الحرفية .

وبفضل قاموس القاسمي ، استطعت من بين اكداس الوثائق التي جمعتها في سبيل التحقيق الذي قمت به بين ١٩٢٧ و١٩٢٩ ، ان استخلص مذكرة عن « تنظيم العمل في دمشق » وكان ذلك نموذجاً من التحقيق الاجتماعي التخطيطي Sociographie يقتصر على نوعين من الابحاث سبقت الاشارة اليهما :

اولهما جدول احصائي للحرف المنظمة وعدد عمالها واسماء شيوخها عام ١٩٢٧

والثاني اسس طبوغرافية عن مواقع الدكاكين والاسواق (وهي دراسة شرع بها ج . سوفاجه وتابعها ن . ايليسيف) .

وكانت قائمة القاسمي (وقد تضمنت ٤٣٧ حرفة) هي المعتمد في النشرة المقارنة التي قدمتها في سجل « النشرات الدولية في علم الاجتماع » سنة ١٩٥٣ (ص٣٣-٥٢) ، وقد ضمنتها كذلك قائمة الأوقاف التي وضعها السيد احمد القاسمي (١١٤) وقوائم مديرية الزراعة والمصالح الاقتصادية (٤٩) وغرفة التجارة (٤٢) وادارة التمتع (٢٠٧) حتى انتهيت الى القائمة التي وضعها الاستاذ جميل صليبا عن « المنظمات الحرفية المستقلة فعلا » وهي خمس وثلاثون منظمة تحولت ست عشرة منظمة منها الى نقابات .

ولقد قمت بدراسة مقارنة للحواضر الاسلامية تتبعتها متنقلا منذ أكثر من اربعين عاماً بين فاس والقاهرة وبغداد واستانبول واصفهان ودلهي ودمشق ، واذا أصالة دمشق المتميزة تثب أمام عينيَّ ، ففي دمشق نما خيال الصناع المبدع وتنوع أكثر ما يكون النمو والتنوع وباكثر ما يمكن من التلون والدقة .

ولقد اشار غاندي في عام ١٩٤٧ الى ما اكتسبته مدن الهند ، ودلهي خاصة ، من الرهافة الفنية ، والى أن الفضل في ذلك انما كان على وجه التحديد لما بلغته الصناعة الاسلامية من اتقان .

ان هذا التوق الى الكمال في أدق التفاصيل ، وفي الأشكال التي لاتجسم الا بقدر ، دونما سعي الى محاكاة الحياة ، ولكن في الاستيحاء من انعكاسها والوانها القزحية ، في الزخارف العربية (الإرابيسك) وفي الخط النسخي ، وذلك من خصائص الفن الاسلامي ، انما يبدو في دمشق بوجه خاص . وهو ايضاً سمة النفسية الخاصة للعامل في المنظمات الحرفية في الاسلام ، وهي أن قوام العمل الإتقان والصدق ، لانه يخضع الى ميثاق بين رفاق ، هو دستورهم ، والى أسعار عادلة تجعل اللقمة التي يكسبها الرجل لقمة حلالاً .

واذ تفحصت احد عشر صنفاً من الحرف الدمشقية التي بلغت ٤٣٧ حرفة كما عددها القاسمي فقد جعلت حرفة الماء في المقدمة . ولم يكن ذلك لأن « من الماء كل شيء حي » (القرآن) فحسب ، بل لان ماء بردى هو قوام الحياة الاجتماعية في دمشق ، وطوائفة التي يشرف عليها الفرضي والشاوي ويصلح ما تعطل منها القساطلي ، وهي تستتبع ثماني حرف أخرى يعرض القاسمي في قاموسه آلاتها وطرق عملها .

ان ماء بردى ينحدر من الربوة منذ الأزل ، وعندها ينقسم قنوات ثمانيا . والمثل الدمشقي(١) يذكرنا بالربوة بقوله : اصعد الى الربوة يا من تريد

---

(١) لم نهتد الى نص هذا المثل . ولسنا ندري مصدر الاستاذ ماسنيون الذي اخذه عنه .

الاستمتاع بالشام ، اصعد هضاب قاسيون وانظر كيف تتفرع قنوات بردى حتى تنتهي الى الغوطة ، اذا ما شئت ان تدرك كيف يتجمع الصناع حوله .

وفي هذا تغنى « جلال الدين الرومي » ذات يوم(١) :

اذا عصفت بك الآلام فاصعد لتبلغهـا وفي الأضلاع شوق
فترمق عنـد ربوتها دمشقاً هنالك تفتن الـرائي دمشق

ذلك بان « الرومي » يقول مع « شمس تبريز » نحن لدمشق عشاق ، وبها مفتونون متيمون .

وكذلك كان القاسمي من عشاق المدينة التي رات عيناه فيهـا النور ، والحياة المتواضعة التي تحياها جمهرة صناعها بين قاسيون والغوطة .

لويس ماسنيون

(١) البيتان من صياغة الدكتور مصطفى البارودي .

محمد سعيد القاسمي

ولد محمد سعيد بن قاسم القاسمي الشهير بالحلاق في اوائل محرم الحرام ١٢٥٩ ـ اوائل شباط ١٨٤٣ .

كان ابوه فقيه الشام وصالحها في عصره . نشأ في حجره ، واخذ عنه العلوم الشرعية والفنون العربية ، وحضر عليه دروسه كلها .

شرع في حفظ القرآن الكريم ، وعمره دون سبع سنين ، وحفظ قرابة نصفه . وكان والده يقرأ الدرس العام بين العشائين في جامع السنانية ، فكان ولده معيداً له ، الى ان توفي عام ١٢٨٤ . ثم تولى بعد ابيه قراءة الدرس العام الى آخر حياته . وتولى خطبة الجمعة في جامع حسان قرابة عشرين عاماً .

قرأ على اعلام عصره ، وقد ذكر ولده جمال الدين من أساتذته المشايخ : محمد الطنطاوي ، وسليم العطار ، ومحمد المنير ، وعمر العطار ، وسعيد الأزهري النابلسي البصير وغيرهم .

عرف عنه أنه كان عصبي المزاج ، خفيف الظل ، كثير المرح ، حلو الصوت ، له معرفة بالموسيقى وانغامها ، سريع الغضب ، سريع الرضا ، كثير الانزواء عن اكابر زمانه ؛ لايلبي دعواتهم ، ولا يغشى مجالسهم الا في الندرة النادرة .

اشتغل مطلع حياته بالتجارة ، فكان له دكان في « العصرونية » ظاهر الجامع الأموي ، تباع فيها الأدوات المنزلية ، ثم تركها وانصرف الى العلم ، يقرأ ويقرىء ويكتب ، وينسخ الكتب النافعة بخطه الجميل . وكانت ادوات كتابته ومطالعته جنب فراشه .

زار بيت المقدس وحج الى بيت الله الحرام عام ١٣٠١

اشار ولده جمال الدين في ترجمته التي قدم بها ديوان شعره الى عقيدته فقال :

« مال اخيراً لمذهب السلف الصالح ، وترك التعصب في المسائل الخلافية ، واخذ بما صح ، ودعا للحق ، مع اعتدال في المشرب » .

وفي هذه الاشارة الرقيقه بقوله « اخيرا » . دليل على تأثير الولد على والده ، في الاتجاه الفكري السليم الذي سعى اليه جمال الدين حياته كلها.

كان فقيهاً غلب عليه الأدب ، ومزاج الأدباء ، فجانب خشونة المشايخ ، وتنكب طريقهم في الدعوة ، فلم يتشبث بما اعتاص من أساليبهم ، وما جف من طرائقهم ، فكانت مجالسه منوعة الأحاديث ، كما كانت دروسه كثيرة الاستطراد . ذكر ولده جمال الدين انه قرأ « الجامع الصغير في درسه العام خلال ستة عشر عاماً ، في وقت كانت قراءة الكتاب لا تستغرق مع اكابر العلماء اكثر من عامين » ، وذلك « لما تتجاذب اليه اطراف الأحاديث الشريفة من الأحكام الشرعية والآداب واللطائف والمناسبات » . وقد اعانه على ذلك ذوقه الأدبي ، وحسن ادائه .

لم يخل شعره ، كما لم تخل مجالسه من شيء من المجون والهزل والفكاهة ، اكد هذا ولده بقوله : « ومع هذا فتواضعه في نفسه ، واطراحه مع اصحابه ، ومجونه معهم ، أمر يقضي منه العجب » . وقال بصدد شعره : « اجاد جده ، واحكم هزله . . . اكثر من ابتكار النوادر ، وتلطف في المجون بكل معنى نادر » .

اما شعره ، فقد قاله في عصر الانحطاط ، في وقت كانت فيه دواوين الفحول مطوية ، لم يعرفها الا القلة من الأدباء . ومع هذا ففيه دليل على الفطرة الصحيحة ، والسليقة الشعرية الرقيقة . ولو قدر له أن يطلع على ما نشرت المطبعة في هذا الزمان من دواوين ائمة الشعراء ، لأفاد كثيراً من المعاني والالفاظ والأساليب . وبالرغم عن هذا فانه لم يقتصر على الفنون التي درج شعراء زمانه على قول الشعر فيها ، وانما تعداها الى غيرها ، مما يدل على فكره المولد الذي لم يجمد على التقليد .

فلقد قال الشعر في المديح والتهاني والتاريخ والفخر والعتاب والاخوانيات. كما قاله في وصف الشتاء ، وفي اخلاق المداهنين ، وفي العلم والجهل ، وفي الحج والزيارة ، وفي اغنياء السوء البخلاء . وله قصيدة في مدح التمثيل المسرحي ومبدعه ابي خليل القباني ، وفي تجديده للموسيقى العربية، ورفع لوائها .

ولقد سمعت من عمي قاسم القاسمي انه نظم لأبي خليل القباني قصيدة مدحه فيها ، وضمن كل بيت منها اسم نغم من الأنغام الشرقية كلها ، فلحنها ابو خليل ، وفقاً لاسم النغم ، وغناها ، فكانت آية الآيات في عصرها ، ولكني لم اعثر عليها في الديوان .

وقد ترك خمسة مؤلفات :

١ ــ هذا الكتاب . وقد افضنا في الكلام عليه في البحث الخاص من المقدمة .

٢ ــ ديوان شعره ، وقد سماه ولده جمال الدين : « الطالع السعيد في ديوان الوالد محمد سعيد » .

٣ ــ « الثغر الباسم بترجمة العلامة الشيخ قاسم » . قال في مقدمته :

« حثني على ذلك ولدي محمد جمال الدين ابو الفرج ، فاجبته لما طلب واراد » .

٤ ــ « سفينة الفرج فيما هب ودب ودرج » ، وهو مجموع على نحو الكشكول .

٥ ــ « تنقيح حوادث دمشق اليومية » نشرته كليه الآداب في جامعة عين شمس عام ١٩٥٩ بتحقيق الاستاذ الدكتور احمد عزة عبد الكريم .

وخلف اربعة اولاد وبنتاً . فاما البنت فقد تزوجها صهره خليل العظم الذي شارك في وضع الجزء الثاني من هذا الكتاب .

واما اولاده فهم : جمال الدين ، ومحمد عيد ، وقاسم ، والدكتور صلاح الدين . وقد نشرت آثار الأخير منهم الذي لم يعش الا تسعة وعشرين عاماً وبضعة اشهر في كتاب قدم له وحققه الأستاذ محب الدين الخطيب عام ١٩٥٩

توفي صباح الجمعة ٢٣ شوال ١٣١٧ ــ ٢٣ شباط ١٩٠٠ ، وقد عطل علماء دمشق دروسهم العامة في الجامع الأموي ثلاث ليال حداداً عليه .

ظافر القاسمي

الصناعة

الصناعة قديمة في العالم قدم الانسان . لايعرف لها ابتداء ، مثلها في ذلك مثل كثير من الشؤون التي نشأت مع الغريزة ، ثم تطورت بالعقل والارادة . ولعل أول صناعة مارسها الانسان ، على ما جاء في الكتب المقدسة ، ما فعله آدم وحواء ، يوم أخذا يخصفان عليهما من أوراق الجنة ، اذا ذهبنا مذهب من رأى أن تدارك الانسان للباس يستر عورته انما هو نوع من الصناعة . فالغريزة ـ قبل العقل والارادة ـ هي التي أوحت للانسان بأن يعمل ، ولعلها في هذا التعليل ، أقوى وأثبت من آثار الانسان الاخرى ، كما أقر ذلك علماء النفس الحديث .

كذلك أقر علماء « الانسان الابتدائي » أن الانسان الأول انما سعى الى رزقه ومسكنه ولباسه وسلاحه بدافع الغريزة ، فبحث عن الصيد يأكل لحمه ، وعن الكهف يأوي اليه، وعن جلود الحيوانات يكتسي بها ، وعن الحجارة يقتنيها ليدافع بها عن نفسه ضد وحوش البر ، وضد جيرانه من البشر . وذلك دون سبق تعليم من أحد . وهذه صناعات أوحت بها الضرورة والحاجة ، ولم يكتسبها الانسان بالتلقين .

وقد ذهب السيد الجرجاني في كتابه « التعريفات » هذا المذهب ، فأقر أن « الصناعة ملكة نفسانية » ، ولا يعني هذا التعبير الواضح الا أنها أثر من آثار الغريزة .

ومن العلماء من ذهب الى أن منشأ الصناعة يعود الى شرارة الذكاء الاولى التي انقدحت من فكر الانسان . فقالوا [١] :

« الصناعة قديمة قدم الانسان . ان تاريخها يرجع الى شرارة الذكاء ٧٥

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ، مادة Industrie ـ جزء ٢٠ ـ ص٧٥٩ .

الاولى التي انقدحت من فكره ، حيث فكر في الاستفادة من الحاجات المحيطة به لاستعماله ، بأن اخضعها الى تحويل ما ، او فكر في اجتنائها » .

« فالصناعة نشأت منذ شعور الانسان بلزوم استخدام المواد بقوة عقله وذراعيه (١) » .

لا بل ذهبت دائرة المعارف الفرنسية الكبرى الى أبعد من هذا ، فرأى الاستاذ « شارنه » M. Charnay الذي وضع بحث Industrie الى أن الحيوان قد شارك الانسان في الصناعة ، وأنها ليست حصرا على الانسان فقال (٢) :

« ويمكن ان يقال ايضا ان الصناعة ليست ملكا حصريا للانسان » :

« ان بعض الحيوانات ، في سبيل الدفاع عن نفسها ، او في سبيل البحث عن قوتها ، دلت على صفات من الاتقان والثبات ، وبرهنت على تقدم في المدنية . ان النمل والنحل وضعت عمليا مبدأ توزيع العمل ، الذي ما زالت تجهله حتى اليوم بعض الجماعات . ان « القندس » Castor تبني على ضفاف الانهار بيوتا أمتن من اكواخ الطين التي يبنيها السكان الأصليون في افريقيا واوقيانوسيا . ان هذه الاعمال أعمال صناعية بالبداهة ، لاننا نجد فيها ما نجد عند الانسان من التصميم والتنفيذ » .

تعاريف :

قالوا في تعريفها :

« الصناعة حرفة الصانع . وعمله الصنعة (٣) » .

« والصناعة في عرف العامة هي العلم الحاصل بمزاولة العمل ، كالخياطة والحياكة ونحوهما ، مما يتوقف على المزاولة والممارسة . وعند الخاصة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . ويكون المقصود منه ذلك العمل ، سواء حصل بمزاولة العمل كالخياطة ونحوها او لا ، كعلم الفقه والمنطق والنحو والحكمة العملية ، مما لا يحتاج في تحصيله الى مزاولة الاعمال . وقيل : كل علم مارسه الانسان حتى صار كالحرفة له يسمى صناعة . وقيل : الصناعة اسم للعلم الحاصل من التمرن على العمل ، او هو ملكة يقتدر بها على استعمال موضوعات ما ، لنحو غرض من الاغراض ، صادرا عن البصيرة بحسب الامكان . .

---

(١) دائرة معارف البستاني ، مادة « صناعة » .

(٢) جزء ٢٠ — ص٧٥٩ .

(٣) القاموس المحيط .

« والصناعة هي كل ما اشتغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه. فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينهما . فقال : الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لاتحتاج اليهما . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صَنَاع اليدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة(١) » .

« والصناعة ملكة نفسانية تصدر عنها الأفعال الاختيارية من غير روية . وقيل : هي العلم المتعلق بكيفية العمل(٢) » .

« كل علم مارسه الرجل ، سواء اكان استدلاليا او غيره ، حتى صار كالحرفة له ، فانه يسمى صناعة . وقيل : كل عمل لايسمى صناعة حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب اليه . وقيل : الصُنعة ـ بالفتح ـ العمل . والصناعة قد تطلق على ملكة يقدر بها على استعمال المصنوعات على وجه البصيرة لتحصيل غرض من الأغراض » .

« والصَناعة ـ بالفتح ـ تستعمل في المحسوسات . وبالكسر في المعاني . وقيل : بالكسر حرفة الصانع . وقبل : هي اخص من الحرفة ، لانها تحتاج في حصولها الى المزاولة(٣) » .

وللافرنج في ذلك أقوال :

« فان كلمة Industrie في الافرنجية التي يراد بها الآن الصناعة ، لم يكن يراد بها في الأصل الروماني الا العمل على الاطلاق ، واشغال قوى الانسان بالحذق والنشاط . ولا يزال الانكليز يستعملونها بهذا المعنى . اما الفرنساويون فيقولون في تعريفها : انها استعمال القوى العقلية والجسدية، لاستخدام المادة لمنفعة الانسان . ومنهم من توسع فيها فاطلقها على الفنون والعلوم(٤) » .

وفي دائرة المعارف الفرنسية الكبرى (٥) :

« لكلمة (صناعة) معان متعددة . وهي في معناها الواسع مرادفة الى : العلم بالعمل Savoir faire ، روح الاختراع ، الاتقان ، والمهارة في عمل

(١) عيسى اسكندر المعلوف : صناعات دمشق القديمة ـ محاضرات المجمع العلمي العربي بدمشق ـ الجزء الاول ـ ص٢٨١ ، ويلاحظ انه قد اقتبس عن البستاني الفاظه دون الاشارة اليه.

(٢) تعريفات الجرجاني ص ٥٨ ـ المطبعة الخيرية ـ ١٣٠٦

(٣) كليات أبي البقاء ، ص ٢٢٠ ـ المطبعة الأميرية ـ ١٢٨١

(٤) دائرة معارف البستاني .

(٥) مادة Industrie ـ الجزء ٢٠ ـ صفحة ٧٥٨

شيء معين . والرجل الصانع Industrieux هو رجل ذكي، وقادر وماهر في تحصيله معاشه من الظروف Habile à tirer partie des circonstances او انه خبير فقط في ممارسة مهنته، او فنه، او حرفته . وان هذه الكلمة تعني اخيرا جميع الفعاليات البشرية التي غايتها الحصول على المنفعة، من جميع العمليات التي تتصل في انتاج الثروة » .

وفي دائرة المعارف البريطانية ما يشبه هذا التعريف [1].

وقال علماء الأخلاق والاجتماع : الصناعة هي كل عمل شريف يؤدي فيه الفرد خدمة للمجتمع • وانما عنوا بالشريف كل ما لم تحظره الآداب والأخلاق العامة، والنظام العام، ولم يقصدوا به ما كان مهينا في نظر فئة من الناس •

تطور الصناعة

يدل التتبع التاريخي على أن الصناعة بدأت فردية، قبل أن يعرف الناس نظام الاجتماع، وبعد أن عرفوه الى مدى لايمكن تحديده على الضبط • فيوم كان الانسان يعيش وحده، كان يتدارك جميع حاجاته بنفسه، دون معونة أو تعاون • وبقي الانسان على هذه الحال بشكل نسبي، حتى بعد أن عرفت المجتمعات البشرية على سطح الأرض •

ولقد ثبت بالأدلة التي قدمها لنا علماء الآثار أنه :

« لدى الجماعات الابتدائية تتجمع كل الاعمال في نفس الأيدي . فالانسان فيها مزارع وصانع وتاجر . انه يقلم الخشب ليصنع منه السهام؛ ويهيء الجلود ليغطي نفسه بها، ويستخدم ريش الطيور والألوان ليزين جسمه ووجهه . انه يذهب الى الصيد والقنص، ويحارب جيرانه [2] » .

ثم لا يلبث الانسان أن يحس بالحاجة الى الاستقرار، لما يرى فيه من الراحة التي يميل اليها بطبعه، ولما يسعى اليه من الطمأنينة التي كانت سبب تقدمه ورقيه، فتهديه غريزته ومشاهدته الى امكان استنباط خيرات الأرض، ثم يرى امكان الاستعانة ببعض الحيوانات الأليفة، فينتفع من صوفها ولبنها، كما ينتبه الى كنز الأرض ومعادنها •

---

(١) مادة Hand Craft

(٢) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى – جزء ٢٠ – ص٧٦٢

« ثم يصبح حضريا ، انه يفلح حقلا ، فيستخرج منه قوته ، ويربي القطعان التي تزوده بصوف ثيابه . انه يصنع ادواته بنفسه ، وترتقي ادواته شيئا فشيئا ، فيكشف النحاس والحديد ، والمعادن الثمينة . ان هذه الاعمال جميعا صناعات (١) » .

« كلما ابتعدنا في الصعود الى تاريخ البشرية نرى الانسان يجهد في الاستفادة من الاشياء التي تزوده بها الطبيعة لاستعماله الشخصي . كان يصنع سلاحه من الحجارة ليدافع بها عن نفسه ، كما كان يصنع ملابسه من جلود الحيوانات ليغطي نفسه بها ، وكان يصنع من غصون الأشجار كوخه ليلجأ اليه في الليل . وبعدئذ تعلم استخدام المعادن من النحاس والحديد . وفي كل اكتشاف كان يحسّن ادواته ، وكان يصبح اكثر مهارة وقوة في صراعه مع العوامل الطبيعية(٢) » .

لقد بقي الطابع الفردي مميزا للصناعة في العصور السحيقة ، بالرغم عن ميل الانسان للاستقرار وسعيه اليه .

ولقد نشأ التعاون ، أول ما نشأ ، في البيت الواحد ، وفي كنف الأسرة الواحدة ، حيث كان التعاون طبيعيا دفعت اليه عواطف الزوجية والأبوة والبنوة كما دعا اليه الاضطرار . وأخذت الأسرة الواحدة في الاهتمام بحاجاتها من قبل أفرادها .

« ولهذا كان كل بيت معملا صناعيا تنسج فيه الملابس ، وتستخدم فيه آلات البناء البسيط وتعمل فيه آلات الطبخ والصيد والقنص(٢) » .

ولعل ما نراه اليوم في بعض قرى الشراكس التابعة للقنيطرة ، من تضامن الزوج والمرأة والأولاد على العمل ، وحرصهم على الاستغناء عن غيرهم ، وقيام الرجل بالفلاحة والنجارة والبناء أحيانا ، وعمل المرأة في نسج ثياب زوجها وأطفالها ، هو أثر من آثار طبيعة المجتمع الأول ، وهو البيت ، الذي قامت على أساسه المجتمعات الكبرى .

وحينما أخذت الأسرة الواحدة بالتفرق ، وعرف الناس معنى العمومة والخؤولة ، والقرابة بصورة عامة ، ونشأت الجماعات ، وأخذ العمران

---

(١) دائرة معارف البستاني ـ مادة : صناعة

(٢) المصدر السابق .

يبسط جناحيه على الأرض ، ازداد شعور الحاجة الى التعاون ، وأخذت الاشغال في الانقسام .

« ونشأت الحرف ، وكثر التبادل بالمعمولات ، واشتغل أصناف من الناس بحرف مختلفة ، علمتها كل فرقة منهم لابنائها ، فكان من ذلك تفرق المحترفين الى طوائف ، أضحت الصناعة فيها وراثية ، بحيث بقي ابن الحداد حدادا ، وابن النجار نجارا ، وهلمجرا . .(١) » .

« ويغلب على الظن ان هذا الاختصاص هو الذي ادى الى احتكار بعض الصناعات في بعض البلدان ؛ فقد عرف في تاريخ الصناعات أن بعض الأسر كانت لاتعلم صناعتها الا لابنائها ، وتحجبها عن سواها وحدث ان انقرضت بعض هذه الأسر ، فانقرضت معها أسرار صناعتها ، وزالت من الوجود .

« ولما قامت المجتمعات المنظمة ، وانتشرت المدنية في أكثر اقطار الارض ، وازدادت علاقات الناس توثقا وتشابكا ، وترقت الصنائع بالاختراع والتحسين ، زال هذا الحصر في القرون الاخيرة وتعددت انواع الصنائع الى ما لا نهاية له(١) » .

الصناعة ومبدأ توزيع الاعمال

ان الصناعة بمعناها الصحيح ، لم تعرف الا في الوقت الذي عرف فيه الانسان مبدأ توزيع الأعمال . ومن البدهي أن كل صناعة لابد لها من أعمال مختلفة متعددة ، كما أن كل صناعة يقتضي لها أنواع من الأعمال تختلف عن الصناعات الاخرى . وعلى هذا فان مفهوم الصناعة الحديث — يدوية أو آلية — انما نشأ يوم أخذ كل انسان ينصرف الى عمل أصلي لايتعداه ، واذا كانت له مشاركة في أعمال أخرى ، فلا تعدو هذه المشاركة الالمام دون الاتقان .

« وليس في التاريخ صراحة في تعيين الزمن الذي نشأ فيه توزيع الحرف . ويظهر ان التفريق بينها كان معروفا منذ بنيت بابل ، وشيد هيكل سليمان ، حيث كان البناؤون بنائين والنقاشون نقاشين ، وقس عليه . وقد حذا اليونان والرومان حذو الامم السالفة بهذا التقسيم حتى قيل ان « سولون » أعظم مشترعي اليونان ، و « نوما » اعظم مشترعي الرومان ، هما اللذان وضعا لأمتيهما دستوراً لأصناف المحترفين(١) » .

---

(١) المصدر السابق

« ولم توجد الصناعة بالمعنى الصحيح ، الا حينما ظهر الاختصاص . اي : حينما اختص الانسان بعمل معين ، بدلا من ان يمارس على التتابع جميع الصناعات الضرورية . ان الصناعة وليدة تقسيم العمل . وان الشعوب العريقة في التقدم . والعريقة في الصناعة هي الشعوب التي قسمت فيها الاعمال بشكل كامل . ولا بد لهذا من شعب كثير العدد نسبيا ، حتى يتمكن كل انسان من الاختصاص في عمل من الأعمال (١) » .

وقد أشار الى هذا المعنى أبو البقاء في كلياته حين قال (٢) :

« قيل : كل عمل لا يسمى صناعة، حتى يتمكن فيه ويتدرب وينسب اليه » .

أخذت الصناعة هذا المفهوم الحديث ، بعد أن مصرت الأمصار . وبعد أن عرف الناس الحياة الاجتماعية المنظمة . القائمة على أن الجماعة كلّ ، يتمم بعضه بعضا ، ويعمل الافراد فيه بروح التضامن . وهم يعلمون أن لاغنى لفريق عن فريق . وأن بقاء المجموع رهن بتعاون المجموع .

ان الصناعة الحديثة مدينة في تقدمها ورقيها الى مبدأ توزيع الاعمال، فهو الذي أدى الى الابتكار والابداع ، فقد كان من مقتضياته حصر الجهد العقلي في أمر معين وهذا ينتج بالبداهة الاتقان والاحكام .

رقي الصناعة وانحطاطها

مرت الصناعة في العهود القديمة بادوار متعددة ، أدت الى رقيها أو انحطاطها كما أن الظروف السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها كانت من أكبر عوامل الرقي والانحطاط .

ولقد عرف التاريخ عهدا كانت فيه الصناعة مهنة مزدراة ، كان ذلك على الغالب ، لدى الجماعات الابتدائية الفطرية ، التي لاتقيم وزنا للحياة الحضرية . ولعل من أوضح الأمثلة على هذا ما عرف عن عرب الجزيرة في العصر الجاهلي ، قبل الاسلام ، فلقد كانوا قوما يكرهون الصناعة ، ويحتقرون أربابها . وقد كان أهل اليمن أسبق من عرب الجزيرة الى الحضارة ، والى اكتساب وسائل المدنية والأخذ بأسباب الرقي والتقدم.

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى .

(٢) ص ٢٢٠

فقد عرفوا الحياة الحضرية بأوسع معانيها ، كما تدل على ذلك آثارهم الباقية حتى اليوم ، ومنها السدود الجبارة الناطقة عن جهدهم في العمران، كما عرفوا قبل الاسلام صناعة النسيج ، وأفانين من اللهو . وكان هذا كله لايروق لعرب الجاهلية ، ولايرونه شيئا يوجب تعلق الانسان به ، بالقياس الى ما كانوا فيه من الغزو والفروسية والشعر والفخر وما الى ذلك مما هو منسجم مع طبيعة الحياة البدوية . ولهذا قالوا عن أهل اليمن قولتهم الشهيرة :

« مافيهم الا ناسج برد ، او راكب عرد ، اولاعب قرد[1] » .

ولقد أكد هذا الرأي المرحوم أحمد أمين حيث قال :

« فأما البدو، فكانوا ولا يزالون يحتقرون الصناعة والزراعة والتجارة[2] » .

ولقد استمر هذا المفهوم الى ما بعد الاسلام، بالرغم عما حمل الاسلام الى الأمم التي دخلت فيه من عناصر الحياة الحضرية وعوامل الرقي .

فقد قيل ان قوما من اليمن فخروا على مضر ، في مجلس الخليفة ، وكان خالد بن صفوان حاضرا ، فأمره ان يجيبهم قال :

« وما اقول يا امير المؤمنين لقوم ، هم بين حائك برد ، ودابغ جلد ، وسائس قرد ، ملكتهم امرأة ، وغرقتهم فاره ؟! [3] » .

وذكر المأمون أصحاب الصناعات فقال :

« السوقة سفل ، والصناع انذال ، والتجار بخلاء ، والكتاب ملوك على الناس[4] » .

ولم تشذ أكثر الأمم الاخرى عن هذه المفاهيم ، فقد كان اشرافها يترفعون عن العمل ، وينعمون بالعيش المترف الرغيد. بينما كانت الطبقات الاخرى ــ من غير الاشراف ــ هي التي تعمل في جميع الصناعات .

---

(١) حفظت هذه الجملة بهذا النص عن استاذي العلامة المغفور له الشيخ عبد القادر المبارك خلال أحد دروسه في تجهيز دمشق، مكتب عنبر ، عام ١٩٢٨ ، ووردت في العقد الفريد بنص آخر أوردناه بعد قليل .

(٢) فجر الاسلام ص٩ ــ الطبعة السابعة .

(٣) العقد الفريد ج٤ ص٤٦ طبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر .

(٤) المحاسن والاضداد المنسوب للجاحظ ص١٢٦ ــ مطبعة السعادة ــ ١٩١٢

يدل على هذا ما جاء في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى [1] :

« ان تاريخ الصناع قد مر في المراحل التي مر بها تاريخ العمال ، فقد كانوا موضع احتقار في العالم ، وسحقتهم مظالم الاقطاع » .

الا أن هـذه الحال لم تستمر الا للقرن الثالث عشر الميلادي ـ في فرنسا خاصة ـ فنهض الصناع من رقدتهم ، ولموا شملهم ، واحكموا أمرهم ، وألفوا لهم منظمات ، أخافت الدولة في كثير من الظروف والاحيان ، مما حملها على حل هذه المنظمات ، تفاديا لاخطارها ، وتقليصا لنفوذها . ففي دائرة المعارف نفسها [2] :

« ان الصناع نهضوا حوالي القرن الثالث عشر . ويمكن ان نرى في كتاب (الصناعات) الذي وضعه ايتين بوالو Etinne Boileau ، كم كان نفوذ المنظمة التي ألفوها قويا : لقد كانوا يؤلفون مع المدربين عندهم دولة داخل الدولة ..... » .

والظاهر ان بعض الامم قد نظر الى الصناعة نظرة أخرى ، اما لانها قد ضربت بسهم أوفر في المدنية ، أو لأن طبيعة حاجاتها كانت تقتضي أن ينظر الى الصناعة النظرة التي تستحقها من التقدير والاحترام . فقد أشار البستاني في دائرة المعارف الى هذا ، دون أن يبين المصدر الذي نقل عنه قال :

« وقد كانت الصناعة في الامم الغابرة على درجات متفاوتة من الاحترام والامتهان . والظاهر انه كان لها شان يذكر في ليديا ، وسائر بلاد آسيا الصغرى . وفيها ضربت ـ على ما يقال ـ النقود الاولى . ومن المشهور ان بابل اشتهرت بطنافسها ، وصور بأرجوانها واصبغتها، واثينا بنسج الملابس، وزخرفة الرياش . ولكنه ليس في التاريخ ما يشير اشارة صريحة الى منزلة المحترفين بهذه الصنائع . ويؤخذ من كتابات هوميروس ان السيد والعبد كانا يشتغلان معا في الصناعة المنزلية [2] ... » .

ويغلب على ظني انه بالرغم عن هذا السند التاريخي الهام ـ كتابات هوميروس ـ أن عمل السيد والعبد ، لم يكن على قدم المساواة ، وانما كانت الاعمال المرهقة على عاتق العبد ، وكان عمل السيد منحصرا في

---

(1) مادة Artisan

(2) دائرة معارف البستاني .

الاشراف والتوجيه • واذا وقعت المشاركة ، فان مشاركة السيد كانت في الحدود الهينة اللينة ، التي لاتنضح عرقا ، ولا تورث تعبا ولا قلقا • هذا اذا صحت رواية هوميروس • والادلة على ذلك أكثر من أن تحصى•

كانت الحروب تؤدي الى تقهقر الصناعات ، لأنها كانت تودي بكثير من ذوي المواهب والخبرة والاتقان • وقد مرَّ على البشرية فترة كانت الحروب فيها تحصد الناس حصدا ، فلا تبقي ولا تذر ، تحرق المدن ، وتخرب المزارع ، وتقتل الرجال ، وتسبي النساء والاطفال ، وتترك ما وراءها خرابا يبابا •

« الجهل والحرب متلازمان . ان احدهما يولد من الآخر ، ويستمران . ان التاريخ العام يعلمنا ان اكثر الشعوب تعلقا بالسلام هي الشعوب الاكثر تقدما في الذكاء ، وان فترات الهدوء ترافقها دوما نهضة صناعية (١) » .

ولقد كان نظام الرقيق من جملة العوامل الكبرى التي أدت الى تقهقر الصناعة •

« لما توالت الحروب والغزوات ، وكثرت الأرقاء ، وكان الانسان ميالا بالطبع من جهة الى الراحة ، ومن جهة اخرى الى الرفعة والمنفعة ، اخذ الأسياد يلقون عبء مشقة الاحتراف على عاتق الأرقاء ، وينصرفون الى التفنن بأساليب الحرب والكفاح ، فانحط شأن الصنائع بانحطاط شأن المشتغلين بها ، وانحطت الصناعة نفسها ايضا ، لأن الرقيق الذي لا أمل له بجر مغنم أو كسب فخر من صنع يديه ، لا يستخدم قوى عقله لاتقان مهنته.

« ويؤخذ من تاريخ رومية انه مضت عليها مئات من السنين ، لم يشتغل فيها بصناعتها الا الأرقاء . ولهذا قل اتقان المصنوعات في آخر عهد من الجمهورية ، واوائل الامبراطورية فكان ارباب الترف واليسار يضطرون الى اتخاذ مصنوعات البلاد الشرقية في منازلهم (٢) ...» .

---

(١) دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ـ جزء ٢٠ ص ٧٦٢

لقد كانت هذه النظرية حقيقة علمية تاريخية ثابتة لدى جميع المحققين والمفكرين ولا ادل على ذلك من ان دائرة المعارف الفرنسية الكبرى تقرها في طبعتها لعام ١٨٩٢ . اي حتى نهاية القرن التاسع عشر ، لا بل بقيت هذه النظرية قائمة حتى اوائل القرن العشرين فلما شبت الحرب العالمية الاولى وتبين ان للعلماء دورا كبيرا في الخدمات التي يؤدونها الى الدول المتحاربة واكدت ذلك الحرب العالمية الثانية انقلبت هذه النظرية راسا على عقب ، واصبح العلم والحرب متلازمين .

(٢) دائرة معارف البستاني .

على أن الحرب لم تكن في التاريخ شرا محضا ، وانما حملت بين الكوارث والآلام ، والدماء والدموع ، في بعض الأحيان ، بعض الخير ، قل أو كثر . ولا جرم في أن تمازج الأمم قد أدى الى تمازج الثقافات ، والى انتقال كثير من العلوم والفنون والصناعات وغيرها من بلد الى آخر ، ومن أمة الى أخرى[1] . كما أدى هذا التمازج الى ابتكار في الانتاج ، وتحسين للنسل ، وارتقاء في كثير من مناحي الحياة .

ويبدو أن انتقال الرقيق ، الذي كان نتيجة من نتائج الحروب ، قد أدى الى انتقال كثير من الصناعات المجهولة لدى الجيوش الغازية . كما أن الفاتحين قد استطاعوا أن يكتسبوا من الأمم المغلوبة كثيرا مما عندها ، بتعلمها ، أو بنقل أربابها ، أو بغير ذلك من الوسائل الاخرى . كان هذا واضحا في تاريخ الفتوحات الاسلامية ، كما كان واضحا في تاريخ الحروب الأخرى .

يقول ولهوسن : Wellhausen

« ان اكثر من نصف سكان الكوفة كانوا من الموالي ، وكان هؤلاء الموالي يحتكرون الحرف والصناعة والتجارة ، وكان اكثرهم فرساً في جنسهم وفي لغتهم ، جاؤوا الكوفة اسرى حرب[2] . . . » .

وقال عامر بن عبد القيس عن الموالي :

« يكسحون حرافنا ، ويخرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا (٢) » .

ان الحروب الصليبية قد أدت كثيرا من الفوائد الى المدنية الأوربية الحديثة . ولا نستقصي هنا ما قاله المؤرخون في هذا المعنى ، وانما نكتفي بأن ننقل ما ورد في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى حول هذا الموضوع الخطير[3] :

« ان الحروب الصليبية ادت الى تلاقي الشرق والغرب . نحن عيال على المدنية العربية بعدد عديد من رقينا ، ولا سيما صهر الحديد ، والمبادىء

(١) راجع الفصل الممتع الذي عقده احمد امين في كتابه فجر الاسلام ــ ج١ ــ ص٨٤ : الفتح الاسلامي وعملية المزج بين الامم .

(٢) المصدر السابق ص ٩٢

(٣) ج ٢٠ ــ ص ٧٦٢

الأوليــة للكيمياء ، والترقيم . ان مراكز صناعيــة كبرى قــد انشئت ، واختراعات قد تضاعفت . أن صناعات الغالات ، والأبنوس ، جددت طرائقها في خدمة الابنية الدينية . ان جميع الصناعات اليدوية قد أحرزت تقدما عظيما . . . » .

وأضافت دائرة معارف العلوم الاجتماعية البريطانية الى هــذا أن الحروب الصليبية كان لها الفضل في نقل صناعة نسيج الحرير الى أوربا[1] :

وهكذا نرى أن الحروب قد أدت الى ارتقاء الصناعات وانحطاطها ، في وقت معا ، وذلك حتى أوائل القرن العشرين . أما الحربان الأخيرتان فانهما وان كانتا قد أودتا بكثير من رجــال العلم والفكر والصناعة ، الا أنهما قد أدتا الى ارتقاء عظيم في جميع مرافق الحياة . ولا يدري الا الله ماذا يمكن أن يكون مصير الحروب القادمة ، هذا اذا وقعت !!

وقد ذهب محمد سعيد القاسمي الى أن للدولة وقوتهــا شأنا في الصنائع وكمالها قال :

« ان البنائين يختلفون بالجودة والقصور في الأجيال ، باعتبار الدولة وقوتها. فالصنائع وكمالها انما هو بكمال الحضارة، وكثرتها بكثرة الطالب لها. فلذلك عندما تكون الدولة بدوية في اول امرها تفتقر في امر البناء الى غير قطرها ؛ كما وقع للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينــة والقدس ؛ ومسجده بالشام ، فبعث الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء ، فبعث اليه منهم من حصل له غرضه من تلك المساجد [2] » .

الصناعة خلال العصور

وضع المؤرخون أدوارا للبشرية ، صنفوا على ترتيبها مراحل المدنية التي مر بها الانسان. فقالوا : عصر ما قبل التاريخ، العصر الحجري .. الخ.

وتدل العاديات والآثار المحفوظة حتى اليوم أن الانسان قــد عرف منذ العصر الأول، وهو العصر الحجري ، الصناعة الدقيقة، التي لا تختلف في كثير من مظاهرها وحقائقها عن الصناعة الحديثة ؛ سواء أكان ذلك من حيث الأدوات ، أم من حيث الأهداف التي كانت تتعرض لاستخدامها .

(1) ج ٧ — ص ٦٨٤ مادة Industrial Art

(2) ج ١ ص ٥٤ من هذا الكتاب .

ولهذا ذهب بعض المؤرخين والفلاسفة الى أن الفكر الانساني لم يتقدم تقدما كبيرا خلال هذه العصور الطويلة ، وأن التقـدم الملحوظ الذي أحرزه ، انما هو في الوفرة والسرعة • أما مـن حيث الفكرة والتصميم والتنفيذ ، فان تقدم الفكر الانساني بطيء كل البطء •

ففي متحف من متاحف العراق أدوات طبية حجرية ، كان الجراحون ـ على ما يظهر ـ يستخدمونها في العمليات الجراحية الكبرى • وقد حدثني الدكتور عبد الرحمن الكيالي أنه اختبر فيما اختبر « السكين » الحجرية التي شاهدها في هذا المتحف ، فاذا هي لطيفة من حيث الشكل ، كما أنها حادة الى درجة لايمكن أن تكون أحدث السكاكين الجراحيـة المعدنية ماضية أكثر من مضائها • هذا فضلا عن جميع الأدوات الأخرى التي اقتضتها حياة الأقوام التي عاشت في العصر الحجري ، فانها تبعث على الاعجاب من حيث ارتقاؤها ، ودقة صنعها ، ولطف أشكالها •

كذلك عرف المصريون القدماء الصناعة الحجرية ، فأقاموا الاهرامات والمسلات على شكل ما زال حتى أيامنا هذه مبعث الاعجاب والتقدير •

وبقيت الصناعة الحجرية قائمة لدى جميع الأمم تقريبا ، بالرغم عن اكتشاف الحديد والنحاس ، ومعرفة وسائل استخدامهما لأغراض الانسان ، كما هو واضح كل الوضوح ، من هذه المعابد الضخمة الهائلة التي أقامها الكلدانيون والأشوريون والمصريون في مختلف البلاد التي أقاموا فيها • وما آثار تدمر وبعلبك والأردن ووادي النيل واليونان والرومان وغيرها الا الدليل الأقوى على المضي في الاهتمام بالصناعة الحجرية ، حتى في العصور التي كان فيها المعدن وفيرا ، كما كان استخدامه يسيرا •

ثم أخذت الأمم في تطوير صناعاتها ، على مقتضى حاجاتها ، ونشأت الصناعات الدقيقة ، كما أخذت صناعات الترف سبيلها الى الظهور ثـم الى الرقي ، نتيجة لاستبحار المدنيـة وانتشارها ، ولرغبـة الانسان في الاستمتاع بلذائذها وفتنتها • ولعل الصين أقـدم أمة عرف عنها أنهـا استمتعت بالصناعات النفيسة ، ونشرتها في العـالم ، كما يدل على ذلك

مؤلفات الرحالة اليها ، منذ أقدم العصور ، والآثار المحفوظة . قال البستاني (١) :

« اما البلاد الشرقية كالصين ، فلا يعلم شيء واضح عن تاريخ سير الصناعة فيها . ولكنه ثابت كل الثبوت ، ان صناعتها قديمة العهد . وقد كانت جارية منذ القدم على سنن اضمن لارباب الصنائع ، فكانوا اكثر اختراعا وتفننا في مصنوعاتهم من امم المغرب . وحسبك دليلا مخترعاتهم الكثيرة ، واستئثارهم بها ازمانا كالبارود وصناعة الخزف . وقيل أيضا : صناعة الطباعة » .

أما العصور الحديثة فقد تعددت فيها الصناعات وتنوعت على شكل لم يعد « يسعه عقل عاقل » على حد تعبير محمد سعيد القاسمي ، في كتابه الذي بين يديك (٢) .

الصناعة والحرية

بدأ الانسان حياته حرا ، يصنع ما يشاء ، كيف يشاء ، ولما انتظمت حياة المجتمع وفرضت القيود على الأفراد ، لكثير من الاسباب الداخلية والخارجية ، والوضعية والذاتية ، وغيرها ، حدت حريته ، وأخذ يعمل ضمن المقتضيات التي ألزمته بها الهيأة الاجتماعية ، بصرف النظر عن خيرها وشرها .

ولا شك في أن الانسان الأول بدأ صناعاته الاولى دون أن يعارضه أحد ممن حوله . ثم لما تكاثر الناس واجتمعوا ، ونظموا عيشهم فيما بينهم ، أخذت القيود في الظهور ، ولم يعد الناس أحرارا فيما يصنعون ويحترفون .

فلقد أدت المنافسة باديء ذي بدء الى أن يقتل القوي الضعيف ، والى أن يقضي المتقن على المهمل .

كما أدى نظام الطبقات الى فرض أعمال معينة على فئات من الناس ، لا يجوز لهم أن ينصرفوا الى غيرها ، ولو كانوا أكثر ميلا لها ، أو أكثر حذقا بها .

---

(١) دائرة المعارف . مادة صناعة .

(٢) ج ١ - ٨٨

وآل نظام الرقيق الى أن استعبد الانسان الانسان ، ومنعه من أن يزاول الا العمل الذي يفرضه السيد على العبد .

وظهرت تقاليد في كثير من المجتمعات كان من اعتباراتها المستمرة أن يتعلم الابن صنعة أبيه ، كما كان هذا أثرا من آثار نظام الأسرة ، الذي بقي الى أوائل هذا القرن في بلادنا الشامية . وقد عرفت أناسا أكرهوا أولادهم على تعلم صناعاتهم ، ولم يخلقوا لها .

وقد أتى على الانسان حين من الدهر ، كانت الحكومات تمنع فيه الناس من أن يعملوا في الصناعة التي يشاؤون .

« ان الحكومات في ايطاليا وفلندرة واسبانيا ، ثم في فرنسا وانكلترا ضيقت على الصناع ، ومنعت ارباب الصناعة الواحدة من تعاطي صناعة اخرى ، فلم تحصل الصناعة اذن على الحرية المطلقة ، فلم تحدث اختراعات مذكورة في كل القرون المتوسطة[1] » .

والظاهر أن حرية العمل في فرنسا لم تكن مضمونة قبل عام ١٧٩١ ، يدل على ذلك ما جاء في قرار الجمعية الوطنية الصادر في آذار من ذلك العام : الذي أشارت اليه دائرة المعارف الفرنسية من :

« ان الثورة الغت المنظمات الحرفية Corporations ، واعلنت حرية العمل[2] » و « ان الجمعية التاسيسية هي التي اعلنت حرية العمل[3] » .

ان التشريع الاسلامي لم يعرف أي قيد على حرية العمل ، وانما أطلق للناس حرياتهم في مزاولة الأعمال التي يريدون .

أما اليوم فان قيود العمل قد نظمها القانون ، ولاسيما في الصناعات العقلية كالمحاماة والطب والهندسة وما شابهها .

---

(١) دائرة معارف البستاني ـ مادة صناعة .

(٢) مادة Corporation ج ٢٠ ـ ص ٧٦٣

(٣) مادة Corporation ج ١٢ ـ ص ١٠٢٩

هذا الكتاب

الصناعات في البلاد الشامية قديمة . وما أعرف أن أحدا ألف عنها ، وانما تناول موضوعها بعض الكتاب بالابحاث والمقالات والمحاضرات . وقد مر ذكر الصناعات في كتب بعض المؤرخين والرحالة عرضا ، دون استقصاء أو تتبع ، كالذي ذكره ابن جبير مثلا عن أسواق حلب فقال : « أسواقها بديعة ، تخرج من سماط صنعة ، وتدخل في سماط صنعة أخرى[1] » . وما صح عن أسواق حلب ، يصح عن أسواق البلاد الشامية جميعا .

كما أن الاستاذ « بيير بازانتي PIERRE BAZANTAY » أشار في بحثه الذي أعده عن التعليم في لواء اسكندرون عام ١٩٣٥ ، باللغة الفرنسية ، الى «النشاط الاقتصادي وتتائجه على التعليم[2] » ومن مظاهره الصناعة في اللواء السليب[3] . ودرس عدة صناعات ما زالت تحتفظ بطابعها الشامي القديم .

ووجدت كتابا مطبوعا في المطبعة الأدبية في بيروت عام ١٣١٣—١٨٩٦ لرجل اسمه « رشيد غازي بن عبيد أحمد » يقع في ١١٠٤ صفحات ، سماه « منتهى المنافع في أنواع الصنائع » ، كان غرضه منه التعريف بكثير من الصناعات الأوربية ، الا أنه تعرض الى بعض الصناعات المحلية ، كصناعة الحرير ، وتربية دود القز ، وصباغ الحرير ، وما شابهها .

---

(١) راجع ـ اطروحة حكمت عبد السلام السكري « تطور الصناعة في حلب خلال ثلث قرن ـ ١٩٢٠ ـ ١٩٥٦ » ـ مكتبة جامعة دمشق .

(٢) المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ـ ص ١٤٤

(٣) ص ١٧٦ ـ ١٨٤

أما كتابنا هذا ، فلم يعرف مثله في موضوعه ، كما أشار مؤلفه في مقدمته حيث قال :

« فهذه نبذة عجيبة ، ونخبة غريبة ، ما سنح فكر بمثلها ، ولا سمع عصر بشكلها(١) » .

حدثني الأستاذ الشيخ حامد التقي، وكان تلميذا خاصا لجمال الدين القاسمي ، لازمه قرابة سبعة عشر عاما ، عن ظروف تأليف هذا الكتاب فقال :

لقد أراد جمال الدين القاسمي أن يحمل أباه على التأليف والعمل ، فأوحى اليه بأن يضع قاموسا لصناعات دمشق . فسأل الوالد ولده :

ــ وكيف أبدأ ؟ فأجاب الولد :

ــ تستأجر دابة ، وتركبها ، وتذهب الى « البوابة » ــ أقصى المدينة من الجنوب ــ وتحمل في جيبك دفترا وقلما، وتنزل عن دابتك ، ثم تسير على جانبي الطريق ، حتى تصل الى شمالي المدينة ، وتسجل أسماء الصناعات والحرف ، ثم تشرع في دراستها ، والبحث عنها ، وبهذا يتم كتابك .

قال الاستاذ التقي : وهكذا كان . الا أن المنية قد عاجلت محمد سعيد القاسمي قبل أن يتم كتابه ، وانما وصل في معجمه الى حرف السين ، وأتمه ولده جمال الدين هو وزوج شقيقته ، خليل العظم ، صهر المؤلف الأول .

ولم يكن الاحصاء كافيا ، ولا تتبع الصناعات في الأسواق وجده وافيا بهذا العمل ، لأن كثيرا منها يخرج عن نطاق الأسواق ، يعمل أربابها في الدور ، أو في الحقول ، أو على ضفاف الانهار ، كما أن بعضها موسمي ، لايعرف لأصحابها مقر . ولهذا أعتقد أن المؤلفين قد أجهدوا أذهانهم ، وذاكروا من حولهم من الأهل والأصدقاء والمعارف ، وأخذوا في تسجيل الصناعات تباعا ، الى أن اجتمع لديهم (٤٣٧) أربعمئة وسبع

---

(١) ص ٤

وثلاثون صناعة . هذا فضلا عن أن بعض الصناعات التي ضمها الكتاب كانت قد انقرضت ، وبعضها كان على طريق الانقراض ، فلم يكن تتبعها في الأسواق ممكنا ، ولا بد لمعرفة أحوالها وأوضاعها من استيضاح أهلها ، والاستفسار منهم عن دقائقها .

لا أعرف على الضبط التاريخ الذي بدأ فيه محمد سعيد القاسمي في التدوين . وانما يتراءى لي أنه قد وقع في عام ١٣٠٩ ــ ١٨٩٣ أو قبله بقليل . فهو لم يشر الى ذلك في كتابه . وانما ورد في الصناعات الاولى اشارة الى أن تدوينها كان عام ١٣٠٩ (١) .

فاذا افترضنا أنه جمع مواد الكتاب قبل سنة من البدء في تأليفه ، على الأكثر ، كان الشروع في وضعه عام ١٣٠٨ــ١٨٩٢ .

ولا شك في أن الجزء الأول قد انتهى في السنة التي توفي فيها مؤلفه ، أي عام ١٣١٧ــ١٩٠٠ . وعلى هذا فان المؤلف قد بذل ما يقرب من عشر سنوات متواليات وهو يجمع ، ويرتب ، ويحقق ، الى أن توفرت لديه مواد الجزء الاول ، وهو جهد لايعرفه الا الذي يكابده ويعانيه .

وقد رأى جمال الدين القاسمي ان الواجب يدعوه لاتمام ما بدأ به أبوه لاسيما وأنه صاحب الفكرة ، وأبو عذرتها . الا أن جمال الدين كان قد شرع في السنة التي توفي فيها أبوه بتأليف تفسيره الكبير الذي سماه « **محاسن التأويل** » الى جانب ما كان يشغله من شؤون المجتمع الاسلامي والعربي ، وذرائع الاصلاح ، والنهوض بالأمة عن الدرك الذي هوت اليه . فلم يكن وقته يتسع لهذا العمل الاحصائي الواسع ، الذي يتطلب كثيرا من الجهد ، والتتبع ، والمراقبة ، والملاحظة والاستقصاء . فرأى أن يستعين بزوج أخته خليل العظم . فعهد اليه بالجمع والترتيب ، كما عهد اليه بكتابة بعض المواد بقلمه ، ولهذا قد ترى في الجزء الثاني فارقا واضحا في أسلوب بعض المواد عن أسلوب بعضها الآخر . ويقيني أن وقت جمال الدين لم يتسع ، لا لاعادة النظر في بعض المواد ، بل لقراءتها

---

(١) راجع : بوابيجي ــ ج ١ ــ ص ٥٧

أيضا ، بدليل ما في بعضها من الأخطاء اللغوية والنحوية والصرفية الواضحة . وقد تركت الكتاب كما ارتضاه جمال الدين ولم أمد يدي الى شيء من الاصلاح ، الا ما اعتقدت أنه من تحريف الناسخين اللذين توليا كتابة النسختين الموجودتين في المكتبة القاسمية. لاسيما اذا اختلفت النسختان وكان الصواب في احداهما .

وقد عهدت جمال الدين القاسمي يكتب مؤلفاته بخطه الفارسي الأنيق . وأصول مؤلفاته ما زالت في مكتبته ، منذ حداثة سنه ، الى يوم وفاته . أما هذا الكتاب ، فلم أعثر على أصوله التي بخط والده ، أو بخطه هو ، أو بخط خليل العظم . والنسختان اللتان في المكتبة القاسمية، احداهما بخط الشيخ حامد التقي ، وثانيتهما بخط الشيخ محمد المجذوب. ولست أدري أين بقيت الأصول التي نسخا عنها .

بقي هذا الكتاب محبوسا في المكتبة القاسمية الى عام ١٩٢٨ ، حيث قدم دمشق الاستاذ لويس ماسنيون . وكان يعرف أنه موجود فيها ، خلال زيارته الاولى التي قدم فيها الى دمشق عام ١٩١٩ وزار القاسميين في بيتهم ، واطلع على مكتبتهم ، وعلى بعض مؤلفات جمال الدين القاسمي ، ومنها « قاموس الصناعات الشامية » . فلما عاد الى دمشق عام ١٩٢٨ ، طلب الحصول على نسخة من هذا الكتاب. وكان له ما أراد .

وبقي الكتاب لايرى النور الى عام ١٩٥٨ ، حيث كنت في شهر حزيران في العاصمة الفرنسية . وقد لقيت فيها صديقي الاستاذ جاك برك Jacques BERQUE أستاذ التاريخ الاجتماعي للاسلام المعاصر في الكوليج دوفرانس ، وزرت واياه الاستاذ لويس ماسنيون ، وتحدثنا في مواضيع شتى، لمست فيها منهما كثيرا من الحب والتقدير للعرب والاسلام، كما أعجبت بالتزامهما الحق في بحث كثير من المواضيع السياسية الدولية، ولا سيما ما كان منها متعلقا بحقوق العرب في الجزائر وفلسطين . ثم أشار الاستاذ ماسنيون الى أنه يملك في مكتبته نسخة عن كتاب فريد ، هو « قاموس الصناعات الشامية » ، والتفت الى الاستاذ « برك » ، وقال له : هو ذا اختصاصك ـ التاريخ الاجتماعي ـ فهلا سعيت بطبع

الكتاب ؟ قال الاستاذ برك ـ والكتاب بين يديه يقلب صفحاته ـ :

ـ بلى يا سيدي ! وهل تقدمه الى القراء ؟ أجاب ماسنيون :

ـ يسرني ذلك كثيرا .

ثم التفت الي ماسنيون ، وقال : هل تأذن بذلك ؟ قلت :

ـ اني لأرحب بهذا كل الترحيب .

فقال للاستاذ برك :

ـ اتخذوا الترتيب اللازم للبدء في العمل .

استأذنني الاستاذ « فرناند بروديل Fernand Braudel » رئيس القسم السادس في المدرسة العملية للدراسات العليا بطبع الكتاب، بكتاب مؤرخ في ١٩٥٨/٦/٢٤ وجهه الي ، فلم أتردد باجابته موافقا وشاكرا .

وبعد أن تراسلنا بشأن جميع الترتيبات التي يقتضيها طبع الكتاب ونشره ، وردني كتاب من وزير الثقافة والارشاد القومي مؤرخ في ١٩٥٩/٨/٦ يطلب الي فيه بحث موضوع الكتاب والتعاون على نشره. فأسفت لتأخر هذا الطلب، لسبق ارتباطي بطبعه مع المدرسة المشار اليها.

وخلال شهر شباط ١٩٥٩ قدم الاستاذ ماسنيون الى دمشق ، وقد زرته قبيل سفره ، واستغرقت زيارتي قرابة ساعة ، وقد سألني عما اذا كنت أنوي أن أضع للكتاب ملحقا مصورا لبعض الصناعات الباقية ، وأخذ يشرح لي فوائد هذا العمل ، وأنه من أسباب خلود الكتاب ، وحسّن لي النهوض به ، والانكباب عليه . فقنعت منه بصواب الرأي ، وكلفت صديقي الاستاذ روبين ملكي المحامي بأخذ الصور الملونة لما يمكن تصويره ، وهو جاد في عمله ، ونأمل بعد انتهائه من هذا العمل المتواصل الشاق أن يمثل الملحق المصور بأبهى حلة .

• • •

لقد احتلت صناعات دمشق خاصة . والبلاد الشامية عامة ، مكانة ملحوظة خلال العصور الفائتة ، وما زال ينسب الى مدينة دمشق نوع من النسيج عرف حتى اليوم بـ « الدامسكو » • واذا مررت في متحف اللوفر ، وجدت قطعة من حرير كتب عليها لفظ « DAMAS » . محفوظة منذ القرن السابع عشر ، قيل انها كانت أعز ما اقتنت زوجة لويس الرابع عشر •

ولقد مرت معك شهادة الأستاذ شارنه Charnay الذي كتب فصل « الصناعة » في دائرة المعارف الفرنسية الكبرى ، عما كان من حصيلة الحروب الصليبية التي أدت الى تلاقي الشرق والغرب ، وأن المدنية الأوربية عيال على المدنية العربية في اكتساب ورقي كثير من الصناعات ، وأهمها : صهر الحديد ، والمبادىء الأولية للكيمياء ، والترقيم • وغير خاف أن الحروب الصليبية قد دارت رحاها في بلاد الشام ، وأن ما جنته المدنية الأوربية ، انما كان منشؤه الديار الشامية وحدها •

ولقد بقيت البلاد الأوربية حريصة على شراء المنتجات الصناعية للبلاد الشامية قرونا عديدة • وقد عرفت الفترة الواقعة بين القرن العاشر والقرن الرابع عشر الميلادي في أوربا ، بـ « الدور العربي » لارتقاء صناعة النسيج الحريري (١) •

كما عرف أن الأوربيين كانوا يتسابقون لشراء المنسوجات السورية (٢) •

وبقيت الأسواق الاوربية حريصة على منسوجاتنا حتى أواخر القرن الثامن عشر ، وأوائل القرن التاسع عشر • يدل على ذلك الوثيقة التاريخية الهامة التي تملكها شركة الغزل والنسيج في حلب ، ويرجع تاريخها الى عام ١٧٩٨ ، وهي « بوليصة شحن » ، تضمنت شحن كميات من الغزل والنسيج والحرير ومصنوعات النحاس • وبالنظر لقيمة هذه الوثيقة من الناحية التاريخية واللغوية والاقتصادية ، فاننا ننشرها بنصها (٣) :

---

(١) معزز دهان ــ الصناعات النسجية في سورية ــ ص٢ ــ (مكتبة جامعة دمشق) •

(٢) المصدر السابق ــ ص٢ •

(٣) المصدر السابق ــ ص٢ ــ ٣ وقد نشرنا صورة شمسية من أصلها •

بوليصة شحن

في اليوم ..... ١٧٩٨ في اسكندرون

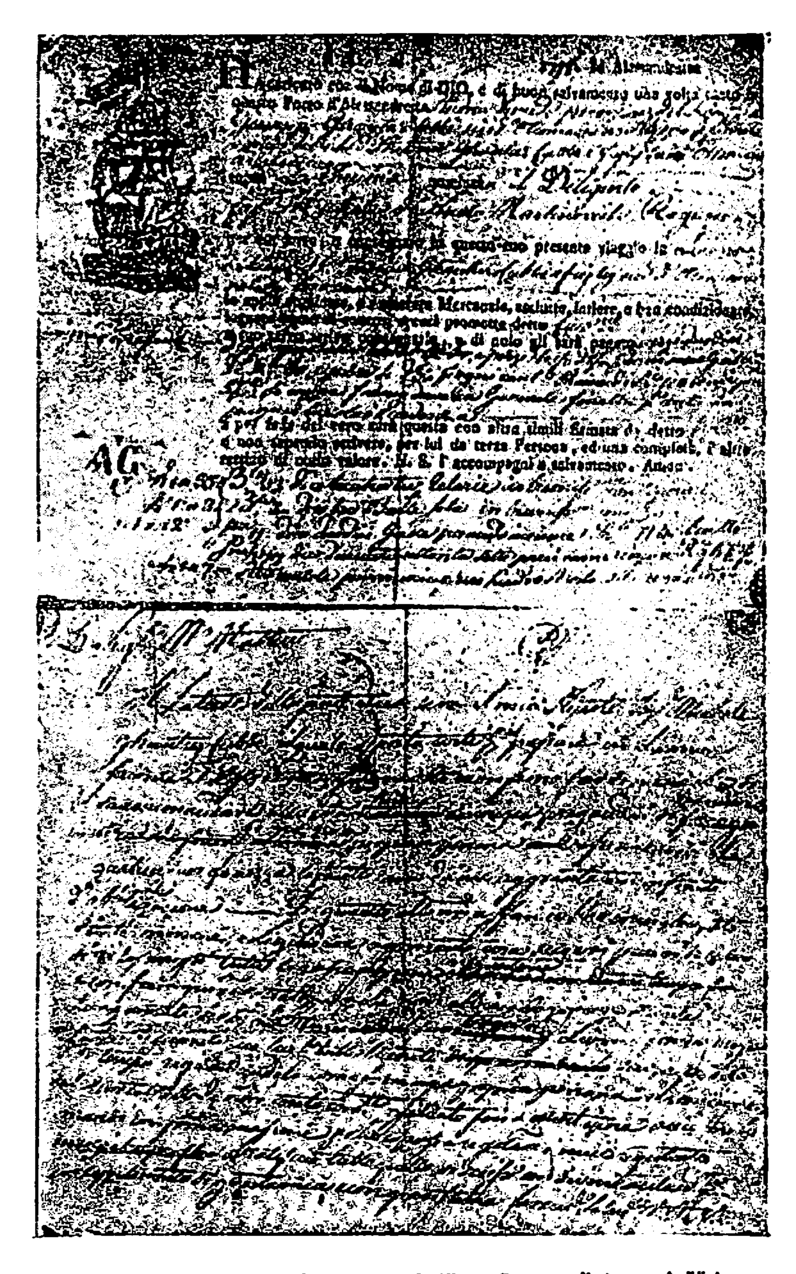
بسم الله ، وعلى نية الوصول بالسلام ، حمل اندريا فرندي في هذا المرفا ، مرفا الاسكندرون ، لأمر السيد يوسف غنطوس كبه ، من التابعة العثمانية في حلب ، ولحساب وامر السادة انطون غنطوس كبه واولاده ، من التابعة العثمانية ، المقيمين في ليفورتو ، على المركب « لاكيكيا » المسمى بـ « الدجنتي » ، وقبطانه « ميخائيل دي نيكولامارتومنيتش راكسو » ، وذلك لكي يشحن ويسلم في طريق سفره هذا في ليفورتو للسادة المذكورين انطون غنطوس كبه واولاده من التابعية العثمانية الأموال المذكورة والمحددة ادناه ، هي ناشفة وكاملة وبحالة جيدة وحاملة الماركة الموضوعةادناه . وفي هذه الصورة يعد القبطان المذكور حين وصوله بالسلامة ان يسلم البضاعة المذكورة . وعن الناولون (اجرة الشحن) يؤدي اليه اثني بتزا عن كل طرد حاوي رفيع واربع بتزا ونصف مع ٨ ـ ١٠٠٠ من كل غالون سالم وزنه (٦٠ رطل) ، واربع بتزا مع ٨ ـ ١٠٠٠ عن كل قنطار نحاس وزنه (١٠٠ رطل) تدفع دفعة واحدة .

وبيانا لذلك توقع هذه البوليصة (وثيقة الشحن) مع الاخرى من قبل القبطان المذكور ، وبما انه لايعرف الكتابة ، وكل شخصا ثالثا بالتوقيع عنه . ونسأل الله أن يرافق هذه البضاعة لايصالها سالمة آمين .

التوقيع

البيـــان

بـالة	٣٣	اقول ثلاث وثلاثون بالة غزل ومنسوجات في حالة جيدة جدا
بـالة	٣	اقول ثلاث بالات حرير في حالة جيدة جدا
غالونات	١١	اقول احدى عشرة غالون وزنها قائمة ٧١٣ رطل
قطعة	٢٧٧	اقول مئتان وسبع وسبعون قطعة نحاس وزنها ٩٤٧ رطل وثلثي رطل
علبـة	٧	اقول سبع علب ماكولات وديك هنـدي مذبوح ومطبوخ بدون اجرة



presente viaggio la

Mercantile, asciutte, intiere, e ben condizionate

con altre simili firmate

ed una compita, l'altre restino di niun valore. ... l'accompagni a salvamento. Amen.

وثيقة شحن بضائع سورية من الاسكندرون الى اوروبا مؤرخة ١٧٩٨ وفيها الدلالة على اعتماد الاسواق الاوربية حتى أوائل القرن التاسع عشر على الصناعات السورية وأهمها الغزل والنسيج والحرير والنحاس ـ راجع ص٢٢ من المقدمة

كذلك عرفت هذه البلاد الصناعات الزراعية منذ أقدم العصور أيضا • ومن أهمها استخراج زيت الزيتون ، الذي عرف في سهل البلاد وجبلها وساحلها ، لأن شجر الزيتون يمكن أن يعيش وينجح في جميع المناطق سقيا وبعلا •

« ومما يؤكد لنا ان شجرة الزيتون كانت منتشرة في انحاء البلاد السورية ، ما يشاهد في هذه البلاد من بقايا معاصر الزيت ، ومن بقايا احجار الطواحين التي كانت تستخدم في الصناعة الزيتية ، والتي يرجع تاريخها الى عهد الفينيقيين . فهذه كلها ادلة بديهية على ان الأقوام الذين قطنوا في سورية قبل الميلاد بقرون كانوا يعلمون صناعة استخراج الزيت[1] » .

• • •

تضمن الجزء الأول من الكتاب مدخلا اعتبر فيه المؤلف أن نظام العالم متوقف على الصناعة ، وقد جاء مسجعا على طريقة المؤلفين في ذلك العصر ، ومقدمة في معنى الرزق والكسب ، اقتبسها عن ابن خلدون ، تضمنت النظريات الاقتصادية لهذا الفيلسوف الاجتماعي العظيم •

ثم أعقب المقدمة بثلاثة فصول :

١ ــ بحث في الأول منها « فضل الكسب والحث عليه » من الكتاب والسنة والآثار •

٢ ــ وذكر في الثاني « بعض آداب الكسب والمعاملة » ، مقتبس من الأحكام الشرعية ، مؤيدة بالأدلة العقلية والتاريخية والأخلاقية •

٣ ــ وأشار في الثالث الى أمهات الصناعات •

وختم المقدمة بفائدة عن الفرق بين الصناعة والحرفة •

ان هذه المقدمة التي لم تتجاوز ثلاثين صفحة من الكتاب تدل على أن مؤلفه لم يكن رجل جمع وترتيب وتعقيب . ليس غير ، وانما كان أيضا رجل تفكير وتوليد ، على ما في العصر الذي ولد وعاش فيه من تأخر وانحطاط ، واقتباسه عن ابن خلدون ، بحد ذاته ، في زمان لم تعرف فيه

(١) الياس بطحيش ــ النباتات والصناعات الزيتية في الغوطة ودمشق ــ ص٢ (مكتبة جامعة دمشق) •

الا الكتب التقليدية الصفراء ، وتصنيفه مقدمة كتابه بهذه الأبحاث التي لم يحذ فيها حذو أحد من المؤلفين السابقين، وانما كان أبا عذرتها وصاحب فكرتها ، دليل على أنه رجل تحلى بالفكر المولد ، والذهن المتوقد .

ويدلف المؤلف بعد هذا الى الغرض الذي انتدب لـه .

ويصف في كتابه صناعات الشام أدق وصف وأوفاه كما كانت قائمة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

فهو وثيقة تاريخية هامة ، تتضمن تصويرا للصناعات الشامية، فحفظ ما كان يمكن أن يندثر ، وما اندثر بالفعل ، من أسماء وأوصاف كثير من الصناعات التي عاشت وعاش أهلوها في بلاد الشام .

والكتاب قد حاول احصاء الصناعات المعروفة في العصر الذي وضع فيه . ووضع لكل منها تعريفا وايضاحا للطريقة التي تزاول فيها الصناعة. ولقد اقتضى هذا جهدا ليس باليسير . فما كان لمؤلفي الكتاب الاحاطة بجميع الصناعات الشامية ، وطريقة مزاولتها وما تحتاج اليه من الآلات والأدوات ، وأسمائها الاصطلاحية ، ومواسمها ، وغير ذلك مما تراه في تضاعيف الكتاب وسطوره. وما كان هذا متيسراً ولا ممكنا الا بالاجتماع أحيانا الى أهل الصناعات أنفسهم ، والتعرف منهم الى طرائق صناعاتهم. والا بالانتقال أحيانا الى أماكن الصناعات أنفسها ، والاطلاع على الطريقة ووصفها ، ووصف آلاتها وذكر أسمائها .

وترى في الكتاب أسعار بعض الحاجات ، كما كانت معروفة بالعملة المتداولة في ذلك العصر . كما تلحظ فيه بيان أجور بعض الأعمال . فهو من هذه الناحية مصدر من مصادر تاريخ الحياة الاقتصادية في البلاد ، قد لاتظفر عن تلك الفترة بغيره من المصادر .

وفيه بعض المعلومات الزراعية التي ذهب ريحها أو كاد ، بسبب الرقي الذي طرأ على الزراعة وطرائقها .

ومن أهم ما تضمن هذا الكتاب أنه وصف الحياة الاجتماعية في البلاد على شكل لا يمكن أن تجده في كتاب آخر ، فترى فيه مثلا وصفا للتهاليل

وايضاحا للطريقة التي كان يتبعها أهل الشام في اقامتها ، وما استتبع ذلك من العادات في أحزان الناس [1] • كما ترى فيه وصفا للسيارين [2] التي اعتادها أهل الشام ، وما جرى عليه الناس في الأعراس والأعياد وغير ذلك مما امتلأ به الكتاب •

وترى في الكتاب غرضا أصليا ، تكاد تلمحه في أكثر الصناعات التي تمر بك ، هو مزيج بين الدين والأخلاق ففيه تصحيح لبعض العقائد الفاسدة ، أو لبعض الأوهام التي شاع على أنها من الدين وهي ليست منه [3] • وما من عادة ذميمة ، أو خلق سيء أو تقليد كريه ؛ الا تعرض المؤلفون لذمه بكثير من الحماسة الاخلاقية ؛ أو للنهي عنه بحسية دينية واضحة •

فهو حين يبحث عن السائلين [4] ، يروي طرائقهم الممقوتة ، ويعدد أحابيلهم بكثير من الازدراء والاشمئزاز ، بأسلوب أدبي لطيف ، ينم عن رغبة عميقة ؛ لا في خدمة التاريخ الاجتماعي وحده ، بل عن رغبة عميقة في خدمة المجتمع ؛ وتطهيره من هذه الأدران الخبيثة التي علقت به •

وقد انفرد هذا الكتاب بوصف ألبسة الرأس ، التي كانت شائعةقبل عصر المؤلفين ، والتي نسمع بها اليوم ، ولا نعرف معانيها • ونعتقد أنه لولا استقصاء هذا الكتاب لهذا الموضوع ، لما كان للناس أن يعرفوا كيف كان يعتمر أجدادهم من النساء والرجال [5] •

ومما يوجه النظر في هذا الكتاب أنه أشار الى أن بعض الصناعات لايتعاطاها الا اليهود أو النصارى [6] •

وزين الكتاب بكثير من الشعر والطرائف الأدبية ؛ وان لم تكن بالمستوى الذي عرف في هذا الزمان ؛ ولكنها دليل على الذوق الأدبي

---

(١) ص ٢٢٢

(٢) ص ٣٠٥

(٣) راجع ص ١٧٧ ؛ ٢٧٣ ، ٢٧٦ ، ٢٩٩ ، ٣٢٠ وغيرها •

(٤) ص ١٧٧

(٥) ص ٢٧٦ ، ٣٩٤

(٦) ص ٢٣٠ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٤٨٦

الذي غلب على مؤلف الجزء الاول. كما أن فيه كثيرا من الفوائد اللغوية، كتصحيح بعض الالفاظ العاميــة ، أو ردها الى أصولها الصحيحة.(١)

وفي الكتاب فكاهات لطيفة ، وقصص طريفة ، تمر بالقارىء ، فيرتاح لها ، وينشط للمطالعة والاستزادة منها (٢)

كما أن فيه تمجيدا للموسيقى وأهلها ، وتعريفا حلوا لها (٣)

وفيه كذلك فوائد بيتية ، كان يمكن أن ينتفع منها أصحاب البيوت، تجدها مبثوثة في الكتاب هنا وهناك .

ولم يخل الكتاب من فوائد تاريخية نادرة ، قد لاتجدهــا في مصدر آخر ، كابتداء لبس الحذاء «كندرة»(٤) ، «والتصوير »(٥) والمسحر(٦) وانشاء الخط الحجازي(٧) وتاريخ التمثيل المسرحي في سورية(٨) وغيرها .

ومن الابحاث الهامة التي تضمنها الكتاب نسبة بعض الضرائب التي كانت تستوفى من المواطنين(٩) .

وقد أشاد المؤلفون بالمدنية والعلوم الحديثة في كثير مــن مواضع الكتاب ، ولا غرو ، فقد كانوا أسبق من العصر الذي عاشوا فيه . فهم ينهون عن التدجيل في الطب ، ويشيرون بمراجعة الأطباء المختصين(١٠)، وكذلك في الصيدلة والكحالة وغيرها .

وترى الاصطلاحات الأعجمية في كثير من صفحات الكتاب مبثوثة بألفاظها ، مما يدل على سرعة اقتباسهم لشؤون المدنية الحديثة .

(١) ص ٢٣٦ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ، ٣٧٠ وغيرها .
(٢) ص ٤٦٤
(٣) ص ٤٥٩
(٤) ص ٣٩٤
(٥) ص ٤٤٥
(٦) ص ٤٤٠
(٧) ص ٤٦٦
(٨) ص ٤٧٠
(٩) ص ٢٢٥ ، ٣١٠
(١٠) ص ٢٨٩

وتلحظ الدهشة مــن ظهور بعض الآلات الحديثــة التي دخلت الى المجتمــع الدمشقي قبــل نحو ثمانين عامــا . كــآلة الخيــاطة التي « تسمى ماكينا ، وهي من اشغال الفرنج : ذات دولاب وآلات ، مما يبهــر العقول . . . والخياطة بها قد تعلمها كثير من نساء المسلمين[1] » .

ومن أهم ما في الكتاب تصوير للميول الفنية التي اتسم بها الشاميون ، فهم في سهراتهم (الدور) ، مولعون بالموسيقى ، وكذلك في سيارينهم . أما شغفهم بالتمثيل الذي ظهر فجأة في جو دمشق عام ١٢٩٥ ، فقد جاوز الحدود « بحيث لو تاخر شخص عن الميعاد المضروب لم يجد محلا للجلوس ، واصبح الصانع الذي يعمل في يومه من الاجرة يصرفه على التفرج عليها ، ويترك اولاده وعياله يتضورون جوعا[2] » .

والكتاب بعد هذا جدير بأن يدرس دراسة علمية منظمة عميقة ، بحيث تصنف المعلومات التي ضمها تصنيفا يسهل الانتفاع منها ، حين الرجوع اليها . فما بين دفتيه مــن المعلومات الاقتصادية والماليــة والاجتماعية والتجارية والأخلاقية والدينية وغيرها مما يتعلق بالعصر الذي وضع فيه ، مادة أصيلة للباحثين والمؤرخين .

ظافر القاسمي

---

(١) ص ١٣١

(٢) ص ٤٧٠

وصف للمخطوطتين

في المكتبة القاسمية نسختان خطيتان من هذا الكتاب ، بقطع واحد :

الاولى — وجد في أول صفحة منها : « هذا الكتاب مسودة ، والمعول على مبيضته فلينتبه » .

وهي مؤلفة من جزئين مضمومين الى مجلد واحد .

لم أهتد الى ناسخ الجزء الأول ، وانما وجدت في آخره العبارة التالية : « يقول جمال الدين بن المصنف : الى هنا وقف جواد قلم جامعه سيدي الامام الوالد ، قدس الله سره في مسودته ، ولم يقدر له اتمامه . وقد نقلت ما تقدم عن المسودة . وفي نية الحقير جمع تكملة له على حسب الوسع ، يسر المولى لنا ذلك » .

وقوله : « نقلت ما تقدم » لا يعني أنه نقله بالذات ، وانما يعني أن النقل كان بالواسطة .

وجد في آخر الجزء الثاني : « تم كتابة على يد الراجي عفو ربه حامد بن محمد أديب التقي في جمادى الثانية ١٣٢٥ » .

وقد لاحظت في الجزء الاول من المسودة بعض التعديل ، أكثره بخط ولد المؤلف .

الثانية — وهي التي اعتمدنا عليها ، من حيث ترتيب مواد الكتاب . وقد نسخها بكاملها الشيخ محمد المجذوب .

وقد لاحظت أيضا بعض التعديل في بعض مواد الجزء الاول ، أكثره بخط ولد المؤلف ، فأشرت اليه بين هلالين (   ) . وما كان بخط غيره فوضعته بين حاصرتين ، وأشرت اليه في الهامش .

يغلب التطابق على النسختين ، وان كانت المسودة في المواضع المشتبهة ، أصح ، لأن كاتبها أجود خطا ، وأدق فهما .

[illegible]

والجبدة يقال لها المصرية اقل ثمن ذراعها يساوي قرشين والتي دونها
~~[illegible]~~ ذراعها نصف قرش فاقل وصنعتها ان تمد خيوط من
جنس الحبال يقال لها مصيص من خشبة الى خشبة اخرى
كل خيط بخطه على النساجين وتدخل تلك الخيوط بالثقاب خشبة
لمشط الحياكة وتشد شدا قويا وتاتي الصناع بالقش وتدخله
بين تلك الخيوط بالنسق المحكم على مقدار عرض الحصيرة حتى
اذا فرغوا من الادخال كبسوا عرض منها دقوها بذلك المشط وهكذا
حتى يفرغوا منها فاذا انتهوا منها على حسب مطلوب المشتري
قصوا الخيوط وربطوها ربطا محكما لعرض القش لنفوذها ارسلوها
للمشتري وبالجملة فهذه الصنعة عندنا للحزارين الذين يقال
لها الحصريون مستورون ومنعمون ويكتسبون منها كفايتهم
وانه سهل السبب لا رب غيره ه‍ علا

حطاب

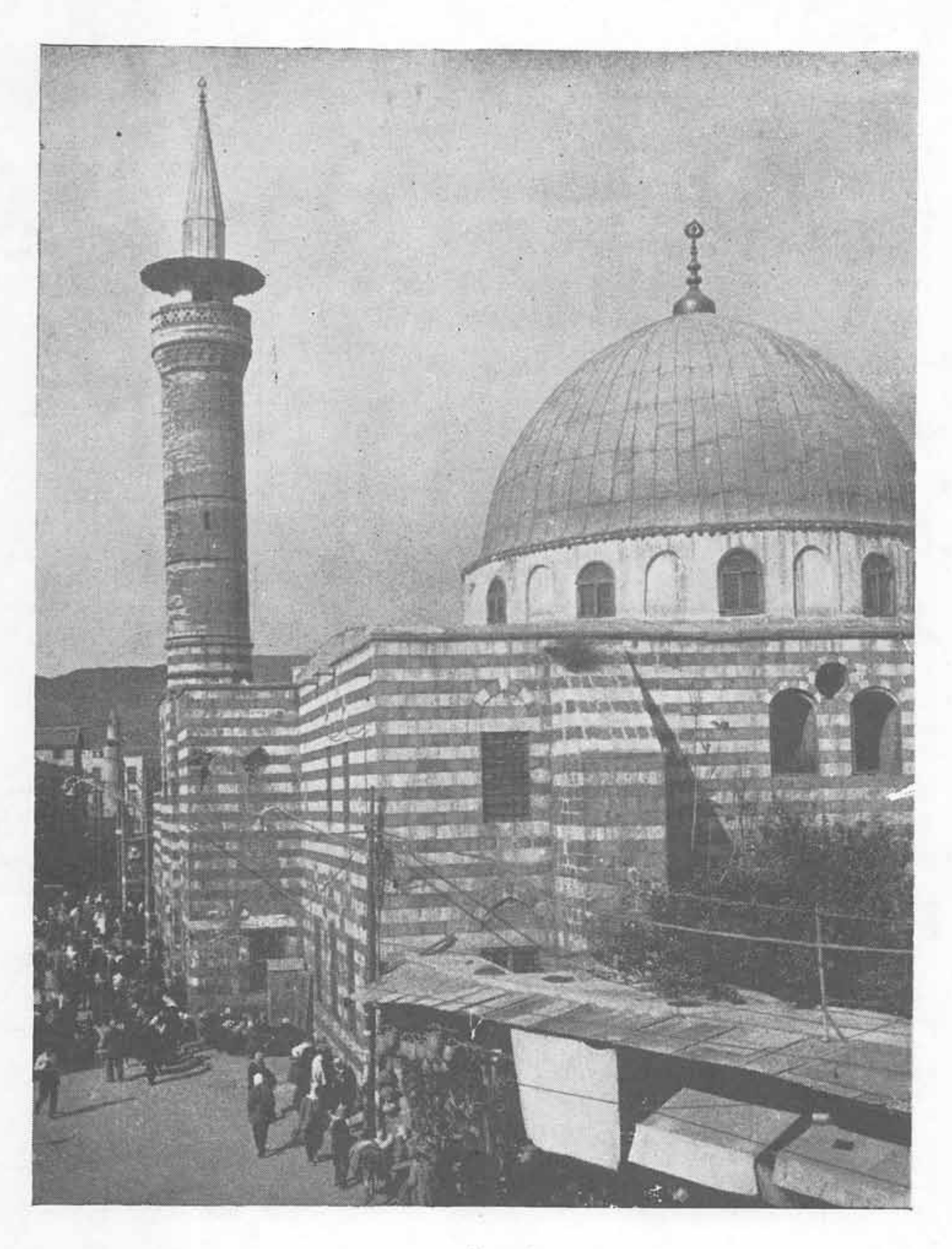
يشتري الاشجار العادية التي
يبيعها من اصحاب البساتين
ثم بعد قلعها وتقطيع اغصانها
يجعلونها احمالا ويحملونها على
دوابهم من جمال وافراس وحمير
ويأتون بتلك الاحمال الى البلدة
ويدورون بالشوارع ويبيعونها
بالسعر الحاضر. والحطابة
اناس لهم مهارة بقطع الشجر
وتهيئته كما يأتي فصلا في حرفة
الكسار (فائدة فقهية)
صح

~~اصول بيع الحطب وهو اما ان يكون الحطاب صاحب ارض [illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
~~[illegible]~~
مثل البساتين والضيعات اشترط في حسب العقد ان
يكون الشجر اليابس لها فقطعها بها غافلا حرج عليهما والا فلا اخذ
لشيء من الحطب يختلس ومغتصب وضامن يجب رد ما اخذ الى
مالكه او يغرم ثمنه ثم اعلم ان اعلا الحطب واغلاه حطب الزيتون
فالجوز فالمشمش وما عداه من الحطب الزعرور والتين فدونها في الثمن
والحاصل ان الحطابين كثيرون ويتعيشون في الجملة ثم من لوازم
الحطاب ان يتبعه الكسار اي كسار الحطب وقد يكون الكسارون
كثيرين

راموز الصفحة ٦٤ من المخطوطة ـ ص ٩٨ ـ ٩٩ من المطبوعة
تلاحظ تصويبات الهوامش بخط جمال الدين القاسمي



محمد سعيد القاسمي



جامع السنانية

وهو الجامع الذي كانت الامامة والتدريس فيه لمحمد سعيد القاسمي
ومن بعده لولده جمال الدين